أدب الرحلة بين محوري التموقع والتوقع من منظور النقد الأدبي
قراءة في الإشكالات والآفاق

أ. بوقرط طيب
جامعة وهران

حظي الخطاب الرحلي بمنزلة سنية على مر العصور نظرا لما يزخر به من الثراء والغنى الفكري والأدبي والتاريخي ...الخ،إذ يمثل وبحق تراثا أدبيا متأصلا يدعو بإلحاح إلى تفعيل مختلف آليات النقد و المساءلة،وذلك بغية معاينة فضاءاته واستكناه عوالمه المليئة بسحر العجائبي والغريب و المفاجأت،وحتى المتناقضات!.كيف لا؟ وهو يضم بتركيبته البنائية والشكلية ألوانا أدبية متعددة تؤثث حضوره في رحاب الأدبية والفنية،فهو موضوع شيق وميدان خصب تتواشج فيه مستويات عديدة من الفكر والمعرفة،حيث بات يستلهم ويستل كل ما أمكن من"خصائص بنية التفكير السائد.ونظرة العربي /المسلم للغير ووصف ثقافته،ولا يخفى علينا أن في وصف الآخر وطبيعة النظرة إليه ارتباطا بالاستشعار الباطني عن ثقافة الذات،وينطبق ذلك على الرحالة جميعهم المسلم وغيرهم على حد سواء"[1]،إذ يفضي ذلك المسعى إلى كشف بعض خبايا الوجود والكون في أكثر من بعد .

وقد رد المستشرقون الروس بداية هذا اللون والشكل من الكتابة إلي القرن(10م)،فحين نجد أنه عرف في تراثنا وتاريخنا العربي والإسلامي قبل ذلك بكثير،فلقد عرف العرب برحلاتهم المبكرة منذ القدم،وكان هدفهم في ذلك طلب العلم واكتشاف الشعوب والأمم الأخرى...الخ،وقد اهتموا بأدب الرحلات اهتماماً كبيراً حتى شكل على مر الأزمنة تراكما يتوهج بمختلف المكونات الفكرية والمعرفية المختلفة تلك التي أغرت حقل النقد بمختلف اتجاهاته،وغيره من العلوم كعلم الاجتماع و علم الإثنوغرافيا...الخ،إذ جد الدارسون والمهتمون كل وفق تخصصه في تقصي تلابيب النص الرحلي وكشف خباياه و مطموراته الضاربة بأبعادها في دواخل الوجود والحياة والإنسانية .

وفي بحثنا هذا ركزنا على أدب الرحلة العربي،ولعل من أقدم نماذجه المتلقفة في القرن الثالث الهجري،وبالتحديد في عهد الدولة العباسية كانت رحلة"سليمان السيرافي"(عاش في القرن 9م)،والتي قام بها إلى المحيط الهندي،ورحلة"سلام الترجمان"إلى حصون جبال"القوقاز"عام 227 هـ بتكليف من الخليفة العباسي"الواثق بالله"،بحثاً عن ما يسمى سد"يأجوج ومأجوج"ذلك الذي بناه"ذي القرنين"،وذلك حسب ما ورد في الذكر الحكيم.وقد وصف الجغرافي"ابن خرداذبة"(ت 272 هـ) هذه الرحلة،إذ كان يعمل عاملاً للبريد في أواسط القرن الثالث للهجرة.[2]

أما من النماذج الرائدة في القرن الرابع الهجري،فنجد رحلات"ابن فضلان"[*]ويرى الدارسون والمختصون أنه كان متميزا في كتابة أدب الرحلة،إذ معه كانت البداية الفعلية لأدب الرحلات؛لأنه كان"لا يبتعد عن أسلوب الأديب ولا يتقرّب من أسلوب الجغرافي" [3]،فنتهج بذلك نهجا وضربا سليما لا تعوز فيه الرحلة لفاعلية الأدبية التي قد تقصيها كثافة الطبع الجغرافي.

وتأتي"رحلة البيروني"(ت 440 هـ)،والمسماة بـ:"تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"كرحلة تجاوزت أفق التاريخ والتأريخ والجغرافيا إلى مكامن الثقافة والحضارة،فهي وبحق نموذج فذ تتراوح بين أسطره الأبعاد الثقافية والحضارية لمجتمعات الهند القديمة،حيث فعل"البيروني"في خضم كتاباته الطرح التحليلي المرتكز على سواعد المقارنة التي تفضي إلى تجلية الفروق وتحديد الخصائص.ونجد في نفس القرن أيضا كل من الرحالة"المسعودي"والرحالة"ابن حوقل المقدسي"...وغيْرهم.

وفي القرن الخامس الهجري تألق كل من الرحالة"ابن بطلان"،وكذا الرحالة"أبو الريحان البيروني"الذي نجده قد خط نهجا جديدا في أدب الرحلات،حيث أردف على فعاليات البعد التاريخي و التأريخي والجغرافي دراسة المنحى الثقافي للمجتمعات وعاداتها ولغاتها بعد أن عاش فيها ردحاً من الزمن،حتى أنه أجاد اللغة الهندية القديمة الأمر الذي مكنه من تحقيق الكثير من مساعي وأهداف رحلته.

و كان من أبرز الرحالة في القرن السادس الهجري الرحالة"الإدريسي"،ويعود له الفضل في وضْع أول خريطة للعالم،وهو صاحب كتاب"نزهة المشتاق في اختراق الآفآق"،ويعد كتابه هذا من أعظم مؤلفات القرون الوسطى نظرا لما يزخر به من معطيات ومكونات فكرية ومعرفية متنوعة.

وأيضا نلتقي بـــ:مؤلف آخر بعنوان:"معجم البلدان"لـــمؤلفه:"ياقوت الحموي"(574هـــ-626هـــ)(1178-1225م)،وهو يعتبر من مشاهير الخطاطين في"العصر العباسي"ونجد كذلك الرحالة "القزويني"(605هـــ-682هـــ)في كتابه:"عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات".

ويستوقفنا في نفس القرن أيضا الرحالة"أبوبكر بن العربي"الذي يُعدّ مؤسس أدب الرحلات في "الأندلس"،وله مصنّفات عدة منها:"ترتيب الرحلة للترغيب في الرحلة"و"أبو حامد الغرناطي"الذي يعتبر واحدٌ من كبار رحالة ذلك القرن(السادس هجري).

وقد زار الرحالة "الغرناطي"الشرق والغرب والصين والهند وإفريقيا،ونقل كل ما رآه وعاينه من أحداث ومشاهد...،وكذلك"رحلة الرحالة"ابن جبير الأندلسي"(540 هـــ/1145 م)،التي تضمنها كتابه المسمى بـــ: "رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك".

وفي القرن السابع الهجري أيضاً عُرفت رحلات كل من الرحالة"ياقوت الحموي"و"ابن سعيد الأندلسي".

ونجد الرحالة "ابن خلدون"في القرن الثامن الهجري المتزامن مع القرن الثاني عشر الميلادي.

وكذلك اشتهرت"رحلة ابن بطوطة"(703- 779هـــ) (1304-1377م)،وهي عبارة عن كتاب بعنوان:"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"(*)يصف رحلة"ابن بطوطة"،ويتحدث فيه عن البلدان التي زارها،وعن أهلها وحكامها وعلمها،ويصف الألبسة بألوانها وأشكالها وحيويتها ودلالتها،ولا ينسى الأطعمة وأنواعها،وطريقة صناعتها،بعد أن أمضى 30 عاما في الرحلات في بلدان العالم. أمر السلطان أبو عنان المريني بتدوين هذه الرحلة التي حازت،وبحق على العديد من الاهتمامات .

وقد اختار السلطان لذلك فقيها أندلسيا التحق ببلاط بني مرين،وهو"ابن جزي الكلبي"،وكان إملاؤها بمدينة فاس سنة 756 هـــ،حيث تُرجم هذا الكتاب إلى عدة لغات مثل: البرتغالية والفرنسية والإنجليزية...،وتُرجمت عدة فصول منه إلى الألمانية...الخ.

وتجدر الإشارة هاهنا إلى أن صبغة العجائبي والغريب في أدب الرحلة لم تقترن في ظهورها المبكر بالسابقين عن"الغرناطي"و"ابن بطوطة". بقدْر ما اقترنت بهما .

وفي العصر الحديث تجاوز أدب الرحلات عقدته التاريخية والجغرافية،إذ أضحى في غمار الأدب كشكل فني،ومن نماذجه في القرن التاسع عشر على سبيل المثال لا الحصر"رفاعة الطهطاوي الأزهري"الذي رافق أول بعثة أرسلها"محمد علي باشا"للدراسة في"فرنسا"؛ليكون واعظاً وإماماً لتلك البعثة،فكتب كتابه الشهير الذائع الصيت،وطُبع أكثر من

مرّة،والمسمى"تخليص الإبريز في تلخيص باريز"،والذي يمثل رؤية شرقية عربية وإسلامية،ورغم الانبهار الواضح في مضمون الكتاب إلا أنه ينتقد في نفس الوقت بعض طباع وسلوك أهل باريس في ذلك الزّمن.

ونجد أيضا رحلات الأمير"شكيب أرسلان"،ومؤلفه الشهير"الحِلَل السُندُسِيَّة فِي أخْبَـار الـبِلاد الأُندلُسِيَّة".ويسـتوقفنا الرحالة"جرجي زيدان"صاحب"الهلال"،ونجد كذلك"الرحلة المعينية 1938م"لمؤلفه:"ماء العينين بن العتيق"(1887م-1957م)،وقد حققه،وقدم له الدكتور"محمد بن الظريف".

وقد وصفت الرحلة بأنها"تشكل مثالا مهما لرحلات الحج التي قام بها المغاربة إلى الديار المقدسة عبر الأجيال...،وما يزيد في أهميتها دقة المرحلة التاريخية التي تحتفي بتسجيل أهم ملامحها ليس في المغرب وأقاليمه فقط بل في ليبيا ومصر والديار الحجازية،وبخاصة؛لأن تلك المرحلة كانت مرحلة صراع مع قوى الاستعمار الغاشم."

وقد جد الرحالة المغاربة أيضا في تصوير المشاهد التي عاينوها في الحجاز وفي طريقهم إليها كصورة تجسد مختلف الأطر الأدبية والفكرية والمعرفية والتاريخية ...الخ كأمثال الرافعي التطواني والعياشي والعامري والقادري الحسني وابن مليح السراح ...وغيرهم .[4]

وانْتَعشت الكِتابات في هذا المجال في عصر النهضة بالنِسبة للثقافة العربية في القرن التاسع عشر، ومطلع القرن الماضي عندما ظهرت أعلامٌ في هذا الأدب وتمحورت كتاباتهم حول البحث عن سبب تخلف بلدان المشرق بغية اللحاق بمنجزات الحضارة الإنسانية.

و لعل من النماذج الشهيرة التي تؤيد تطور أدب الرحلات رحلة" أنيس منصور"حول العالم في 200 يوم.

وقد حرص الكتاب المعاصرون علي تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم وتنقلاتهم في كتب مستقلة لها طابعها الخاص،حيـث ساعدتهم وسائل الاتصال الحديثة والعلم والتقنية،التي يسرت لهم الانتقال إلي أقصي الأرض .كما ظهـرت الاسـتعانة بالصور والمعلومات والوثائق والتشويق والترغيب والمقارنة والخبرة والثقافة والرؤية...الخ.

وما سبق ذكره من بروز للأعلام يكشف عن أهمية أدب الرحلات الذي ظل حاضرا وممتدًا حتى اليوم مع تطوره في البعد و والهدف واللغة ...الخ.

وقارئ النص الرحلي ومتقصي عوالمه من منظور النقد الأدبي سيقف لا محالة على عدة مفارقات تتداخل فيما بينها كإشكاليات تبلور الهاجس الفكري والمعرفي الذي يشوب القراءة النقدية للمدونات الرحلية،ولعل أول الهواجس من جهة التموقع إشكالية المفهوم وإشكالية التجنيس والتصنيف لهذا النص المتأصل و المتجذر في رحاب التراث الإنساني وتحقيق كينونته الماهوية والمتميزة عن بقية الفنون الأدبية كالرواية والسيرة الذاتية وأدب الاعتراف...،وكذا الاتجاهات أخرى غير أدبية كالتاريخ والجغرافيا ...الخ .

وأملنا من خلال هذه الورقة البحثية استكناه بعض القضايا والحيثيات التي تعتري الخطاب الرحلي من منظور النقد الأدبي .كمحاولة لإبراز إشكالية هذا الجنس المنفلت من كل تحديد،من خلال إبراز سعيه إلى إثبات ذاته باستجابته لأفق انتظار فئة من القراء تهتم برهاناته وأفاق الغريب والعجيب القابع في هندسته الأدبية والفنية.

لقد عنيت عديد من البحوث و الدراسات النقدية الأكاديمية بهذا النص الزاخر بالنتوءات الفريدة المتوهجة في معماره الأدبي والفني على مر الزمن،لكن الملاحظ أن تلك الدراسات اهتمت بتقصي مشروع الأدبية داخل المدونة الرحلية أي بمعنى آخر حاولت تلك الدراسات في مجملها رصد العوالم الأدبية وغير الأدبية،ولعل مرد ذلك كله إلى عقدة التجنيس،وقد انعكس ذلك على التتبع العميق لمختلف إشكاليات الرحلة في خضم انتمائها الأدبي والفني،فجناح القصور كان واضحا

لكون تلك الدراسات لم تلم بدقة الخصائص التي تميز فن الرحلة باعتباره خطاب أدبي له كيانه المستقل عن بقية الخطابات الأدبية الأخرى رغم تعالق الخطاب الرحلي مع باقي الأجناس الأدبية كالرواية والقصة والشعر...الخ .فبعض الدراسات الحديثة،رغم لفتها الانتباه إلى الجانب الأدبي للرحلة، لم تعر إشكالية التجنيس أهمية،وسواء رد ذلك إلى اعتبار تسمية أدب الرحلة مسلّمة لا تحتاج إلى إثبات أو إلى كون الآليات النظرية المتاحة لم تتقولب كجهاز نظري يعاين الفن الرحلي،ويكشف عن أدبيته وجماليته .لكن ذلك لم يعدم محاولات بعض الدراسات الحديثة من أن تأخذ على عاتقها عناء الأمر وتؤسس لأدب الرحلة من خلال طرح مداخل نظرية تتمحور حول نشأته ومفهومه وخصائصه،حيث عملت على تجلية عوالم الرحلة الأدبية باستثمار كل ما يمكن إيجاده بغية استنطاق خباياها،وذلك من خلال التوسل بمختلف ما تتيحه المناهج النقدية من آليات نظرية لفهم ومقاربة النص الأدبي الرحلي كالسميائية والأسلوبية والسردية ...الخ .

لم يحظ أدب الرّحلة بموقع ذي أهمّية في تاريخ الأنواع الأدبية العربيّة،حيث يغيب التأريخ له في كُتب التراث،ولعل دوام هاجس التصنيف والمفهوم إلى يومنا هذا أكبر دليل على ذلك،فلعل وجود أدب الرحلة كملتقى الأجناس الأدبية والمعارف والعلوم كان حائلا تعثرت به نوايا تحديد وتجسيد أطره كشكل أدبي،حيث نجده يتسع بمعطياته المختلفة لينتمي إلى دوائر معرفية متعددة كالتاريخ والسير والطراجم...الخ،مما يقلل من أدبيته بالقياس إلى أشكال الأدب الأخرى التي استطاعت أن تجد لها مكانا تحت شمس الأدب والنقد.

- إشكالية المفهوم:

تهتم الدراسات النقدية الحديثة بإرساء المفاهيم الاصطلاحية والقواعد التنظيرية الخاصة بالأنواع الأدبية،حيث تسعى لتصنيف السياقات من خلال البنيات والمعطيات الداخلية للنصوص التي ترد فيها،إذ يسمح ذلك بالتفرقة بين مختلف الخطابات الأدبية وغير الأدبية،ثم تحديد الخصائص الداخلية للخطاب الأدبي-من خلال تلك البنيات والمعطيات-التي تجعله كشكل ونوع أدبي ضمن الأنواع الأخرى من الخطابات كالخطاب القصصي والخطاب الشعري...الخ.

ومما لا غبار عليه أن محاولة الوقوف عند مفهوم اصطلاحي جامع ومانع لأدب الرحلة أضحت أمرا عسيرا،وهذا ما نقف عليه من خلال تعدد المفاهيم التي جد في طرحها المهتمون بحلقة الأدب الرحلي.

وفي هذا السياق نجد"شعيب حليفي"يقول:"وتأتي صعوبة تحديد وصياغة مفهوم للرحلة من عدّة اعتبارات أساسية منها: غياب تعاريف دقيقة،وجود نصوص رحلية كثيرة ثريّة ومتنوعة،وانفتاح النصّ الرحلي على عناصر أخرى متحركة تحضر أو تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص."[5]

وما سبق ذكره عن تعسر إيجاد المفهوم الاصطلاحي الكامل لا يمنع من أن نحاول تقفي بعض المفاهيم التي تقترب بشكل أو آخر في الإحاطة المفاهيمية الموضوعية الأقرب إلى باب الشمولية والدقة.

فقد جاء في"معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب"أن"أدب الرحلة هو"مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة،وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق،ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها،أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة،أو يجمع بين كل هذا في آن واحد."[6]

وعرفه أيضا"انجل بطرس"بقوله:هو"الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم،ويدوّن وصفا له،يسجل فيه مشاهداته،وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير"[7]،وهو بهذا المفهوم يحيط بالأساسيات التي تشكل النص الرحلي وهي:"الرحالة"و"السفر"و"الوصف"و"الموضوعية".

وهذا ما يمكننا أن نرصده أيضا عند"الحاتمي"الذي يقترب في تعريفه بشكل كبير من الإحاطة المفاهيمية الموضوعية الشاملة،إذ يعتبر الرحلة"خطاب تنشئة ذات مركزية،هي ذات الرحالة،تحكي فيه أحداث سفر عاشته،وتصف الأماكن المزورة،والأشخاص الذين لقيتهم،وما جرى معهم من حديث،وغايتها من هذا الحكي إفادة القارئ وإمتاعه." [8]

يقودنا ما سبق إلى أن أدب الرحلة هو خطاب أدبي فني نثري يتناول وصف الأحداث والمرئيات والماديات في الرحلة الواقعية المقترنة بفعل السفر كتحقق آني يفضي إلى الوصف وتصوير المشاهدات والمرئيات من خلال المعاينة في فضائها الحقيقي،وكل ذلك يتم غير بعيد عن التخيل الذي يكون في عماد الوصف لتقريب الحقائق والوقائع التي يعاينها الرحالة في رحلته .

- إشكالية التجنيس :

من أهم القضايا المطروحة على الساحة النقدية،قضية التصنيف كمسعى إلى الشرعية الأدبية. ومن أهم قضايا التصنيف نجد المعيارية ذلك أن النص،سواء كان أدبيا أو غير أدبي،لا يأخذ صفته النوعية أو الجنسية-نسبة إلى الجنس الأدبي-إلا من خلال معيار محدد،هذا الأخير يظل معيارا للتصنيف،بحكم احتوائه على القواسم المشتركة بين النصوص،مدة زمنية معينة،إلى أن يتم خرق هذا المعيار بنص جديد يبحث عن مشروعيته في تراكم نصي جديد يسمح بتأسيس معيار جديد وهكذا.[9]

ونعلم كلنا أن تحديد المفهوم الدقيق الشامل والضابط للمحددات النوعية لهذا الجنس يقود بالضرورة إلى تحديد التصنيف الدقيق،إذ ومن مقامنا هذا تنعكس إشكالية تحديد المفهوم الدقيق للخطاب الرحلي،والتي ما تزال قائمة على مساعي التجنيس،حيث يتعسر بين براثين الأخذ والرد تأطير حدود الخطاب الرحلي،وضبط سماته الفنية ضمن بوتقة السرد بصف خاصة،والأدب بصفة عامة .

ونحن من جهتنا سنختصر الطريق إلى هاجس التجنيس،حيث سنحاول تطعيم الحاصل.إذ تبرز في اللفظتين المدمجتين"أدب الرحلة"لفظة الأدبية التي نفض الغبار عنها،حيث سنلحق بها لفظة رحلة التي تتعلق بشدة بفعل السفر من خلال"انتقال واحد-أو جماعة-من مكان إلى مكان آخر،لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة."[10]

وعليه فإن"الرحلة تظل إنجازا أو فعلا أو مباشرة لما يعنيه،أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة،أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه،والمكان الذي تنتهي إليه".[11]مما يسهم في تبلور الخطاب،وتشكل تركماته عبر حدود زمانية ومكانية مما يسهم بلا شك في قولبة اتجاه فني يتحدد فيه كجنس قائم بذاته .

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن كلمة"رحلة" لم تكن ضمن تسمية كتب الأوائل وهي"ليست من ابتكار العبدري،فأول من سمى هذا النوع من الكتابة رحلة هو أحمد بن جبير المتوفى سنة 214 هجرية،فهو إذن مؤسس فن الرحلة." [12]

ولعل أول سؤال يطرح نفسه من مقام هاجس التجنيس في محاولة سبر غور فن الرحلة هو: هل تم تحديد معالم الخطاب الرحلي ضمن حيزه الأدبي في ظل تشعبات الخطابات السردية وتداخلها إلى حد التماهي أحيانا ؟،وهل تمت إقامة فرضياته النظرية في ضوء التشعبات التنظيرية السردية ؟

تدفعنا الإجابة عن هاته الإشكاليات إلى البحث والتقصي في الكامن ونحن من جهتنا لا نخوض خوضا جريئا في تجنيس أدب الرحلة دون أن نرتكز على رؤى موضوعية تتواتر هنا وهناك في ساحة النقد،حيث سنحاول أن نبحث عن موقع له ضمن نظام الأجناس الأدبية القريبة في خصائصها من تشكلاته الأدبية والفنية كالرواية والسيرة الذاتية...الخ.

وعليه حلي بنا أن نتقصى الفرق الجوهري بين الرواية والرحلة من خلال تتبع ثنائية الزمان والمكان وثنائية السرد والوصف وثنائية التخييل والتجسيد،إذ إن الرواية ذات منطلق سردي محض يتيح للراوي نقلنا إلى عالم القصة،ويأتي دور الوصف كبعد جمالي يهندسُ حضورهُ عوالم الشخصية،ومكان الحدث،حيث يتم الاستحضار الزماني في السرد عن طريق تفعيل عنصر التخييل من خلال إعادة ترتيب الزمن وملء فراغاته.

فحين نجد أن منطلق الرحلة هو الوصف كجذر يتفرع منه التصوير المباشر في النص نظرا لأولوية عنصر المكان في بنائها الخطابي،إذ يستقي الرحالة المعلومات والحقائق من المشاهد الحية،والتصوير المباشر،حيث يغدو الزمان بفعل الوصف في الرحلة كتصوير آني يتجسد في مختلف محطات الرحلة،فلا يعقد ذلك في عملية التلقي شيئا؛لأن أسلوب الكتابة يرتكز على"التقرير الأقرب إلى وصف من"درجة الصفر"[13].

ففي حيلولة الزمن السردي داخل الرواية،والذي يتخبط في ثنايا المشهد السردي في خطية نطية تتواشج فيها أطر الزمان الماضي والحاضر والمستقبل راسمة عدة توجهات زمانية تتميز بالتعقيد الزمني كهاجس يحاول كل قارئ تخطيه حسب فهمه ومرجعيته الفاصلة في مختلف الإضاءات الأدبية والفنية الفكرية الكامنة داخل البناء السردي للرواية .

يقودنا ما سبق إلى حقيقة مفادها أن السرد يتحقق بفعل الحديث عن الفعل في الزمان المقولب في عدة استراتجيات تخيلية بالدرجة الأولى،فحين أن الوصف يتحقق بفعل الحديث عن المكان و تشعباته الهندسية والمادية الواقعية المختلفة،وهذه ليست دعوة للفصل بين الزمان والمكان والسرد والوصف والتخييل والتجسيد،لأنها في حقيقة الأمر ثنائيات تتكامل في حضورها داخل العمل الأدبي والفني لتشكل الحقائق أو الزيف،وذلك حسب الرؤية والهدف الذي يتبناه كاتب الرحلة نفسه،حيث تشكلت ومازالت تتشكل العديد من الهواجس التي تتعلق بمفهوم الأجناس الأدبية التي تتداخل فيما بينها إلى اليوم .

ومادامت"الرواية في الأدب Novel سرد نثري خيالي طويل عادة،تجمع فيه عدة عناصر في وقت واحد مع اختلافها في الأهمية النسبية باختلاف نوع الرواية".[14]فإنها بهذا المفهوم تلتقي مع أبجديات"الرحلة الخيالية"إلى حد بعيد،إذ إن"الرحلة الخيالية (fantastic voyage)"قصة رحلة يقوم بها الإنسان في مناطق غير حقيقية،وتصور مغامرات خارقة بقصد التسلية،وإثارة الخيال.ومثال ذلك: رحلات السندباد البحري."[15]

وهذا أمر يدفعنا لإقصاء الرحلة الخيالية من حظيرة أدب الرحلة نظرا لسقوط فعليات الواقع والرحالة والسفر الفعلي المقترن بفعل المسير والترحال والتجوال.إذ إن المعاينة الواقعية للرحالة من أساسيات أدب الرحلة .

وكذلك السفر القصدي هو الذي يجعل من المتن الرحلي حاملا لخصائصه النوعية سواء على مستوى المسار العام للرحلة L'itinéraire،أو على مستوى-من ناحية أخرى-طبيعة علاقة النص بالرحلي بالنصوص الأخرى.

وفي هذا الصدد يقول"عبد الفتاح كيليطو":"السفر يسمح بالتصنيف،وهو في الوقت ذاته،يمكننا من تلمس خصائص الكتابة،ما دامت الرحلة نوعا أدبيا يقلص من دور المصادفة،ويقدم لنا،بقدر كبير،قواعد إنتاج النص وقواعد تلقيه معا."[16]

ويرى فؤاد قنديل في كتابه"أدب الرحلة في التراث العربي"أن أدب الرحلة عبارة عن"ملتقى الفنون"[17]،"وبحر من المعارف والاكتشافات"[18]؛فهو بمثابة شكل متقدم يتداخل في بوتقته الفنية والفكرية نفر من الأجناس الأدبية المختلفة،وكأنه فضاء أدبي يتمرد بحضوره و حركيته على مساعي التجنيس"،فأصبح بذلك نمطا خاصا غير مستقل بذاته،حيث تلتقي فيه روافد

مختلف الأجناس الأدبية وغير الأدبية كيف لا ؟،واليوم يعد أدب الرحلات(السفرنامة)كوثيقة تاريخية هامة تجاوزت في حيثياتها وقضاياها الدراسة الجغرافية والتاريخية إلى دراسة ثقافات مجتمعات عديدة .

ويمكننا من التعريف الذي طرحه"ناصر الموافي"أن نضع الخطاب الرحلي تحت خانة تجنيسية هي فن النثر،إذ نجده يقول عن خطاب الرحلة أنه:"ذلك النثر الذي يصف رحلة-أو رحلات-واقعية،قام بها رحال متميز،موازنا بين الذات والموضوع،من خلال مضمون وشكل مرنين،بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه"[19].

وهو بذلك يختلف عن"الأدب الجغرافي الذي يتبع النهج العلمي،ولكن بأسلوب أدبي،بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر،وبحيث تظل شخصية الرحال بين آن وآخر،لتقيم نوعا من التوازن بين الموضوع والذات،وبحيث يتعلم القارئ،ويستمتع في آن.إنها ازدواجية تهدف إلى التقديم غير المباشر للمعلومة،أو لتحقيق حدتها وجفافها،بحيث لا يمل القارئ."[20]

ومن جهتنا نرى أن النص الرحلي خطاب أدبي إبداعي يُراوحُ فيه الرحالة بين عوالم الواقع ومرجعيته الذاتية والإيديولوجية...التي تتقولب بصفة مباشرة أو غير مباشرة ضمن الوصف المثقل بكثافة الأطر المكانية والمادية التي يصور فيها الرحالة ما وقع له من أحداث،وما صادفه من أمور في أثناء الرحلة التي قام بها إلى بلد أو مجموعة بلدان.ويكون فعل السفر والتخييل كنسغ صاعد يجسد حركية إبداعية غامضة يثبت الصدق من أبجدياتها فعل التحقق الذي يحتفي بمتاهات العجائبي والمتناقض في عالم الرحلة .

لقد تجاوز الأدب في خضم حركيته الفنية والإبداعية المتاحة هوسه بالشعر والنثر والسرد إلى الاهتمام بالحاصل في بوتقة الفنون المكتوبة و القولية تلك التي تعنى بقضايا الذات والحياة والكون،إذ أضحى الأدب علما"يشمل أصول فن الكتابة،ويعنى بالآثار الخطية والنثرية والشعرية،وهو المعبر عن حالة المجتمع البشري،والمبين بدقة وأمانة عن العواطف التي تعتمل في نفوس شعب أو جيل من الناس أو أهل حضارة من الحضارات."[21]

ومن خلال هذا المفهوم تنعقد على أبجديات الخطاب الرحلي من مطية التوقع كمحاولة لتقصي رهانات وآفاق هذا الشكل الفني المتأرجح بين الإمتاع والإفادة الضارب بجذوره في القدم عدة إشكالات منها:

هل انقرضت السفرنامة أم تقولبت في نمط أدبي حديث يبحث عن كينونته الضائعة منذ القديم كهاجس قولبه قصور التنظير الذي وسع من متاهته التداخل بين الأجناس ؟

من خلال معاينة التراكم الحاصل نجد أن السفرنامة لم تندثر"فهي موجودة بشكل أو بآخر،لكنها تبدلت في كثير من تقاليدها التراثية.فالرحلة العصرية رحلة وقافة،أي تقف بالدارس في مدينة مجاورة لموطنه..واختفت الرحلة الطوافة التي كان ينتقل فيها الدارس من مدينة إلى أخرى في جنبات كثيرة متباعدة."[22]

فأدب الرحلة بالرغم من كثافته الأدبية والتاريخية العالية،مازال متأبطا بحضوره تحت ذراع الأدب حتى في ظل وجود نصوص رحلية حديثة ومعاصرة حاولت التغيير في نهجها من خلال تغيير النتوءات الفكرية والمعرفية في الموضوع والرؤية والهدف،وحتى اللغة التي أضحت أكثر ديناميكية في تصوير الفضاء الرحلي .

ولعل مرد ضمور أدب الرحلة.راجع بالدرجة الأولى إلى التغيرات على مستوى الصعيد الفكري والاجتماعي...،إذ إن ظهور وسائل الإعلام والاتصال،وسهولة التنقل إلى أي بقعة في الأرض قلل من قيمة مدونة السفرنامة،وأحاطها بالعزوف مما أسهم وبحق في توسيع الهوة بينها وبينها القارئ؛لأن حمولتها المعرفية،فقدت القدرة على مناورة ووخز أفق الانتظار لدي

المتلقي،فاندثر كيان التشويق والمتعة وكشفا غطاءهما السحري نظرا للكم الهائل منن المعلومات التي يتلقاها الإنسان في حياته اليومية اليوم من خلال التلفاز والهوائيات و النت والخرائط...وغيرها.

إلا أن ذلك لم يفني من جهود بعض الجهات التي عملت،ولا تزال تعمل على رفع لواء الأدبية والفنية لأدب الرحلة في خضم الحركية الإبداعية،حيث تحاول بعض الجهود هنا وهناك أن تعنى بتحليل الخطاب الرحلي باعتباره موسوعة معلومات ومعارف إنسانية يستقي منه عديد من الباحثين معلوماتهم،فهو ذو قيمة كبيرة في إضاءة المتلقي بمجموعة من المعارف التي لا يستطيع القص والشعر ...الخ الإحاطة بها،وقد يكون بإمكانيته خيارا تتكاثف فيه سياقات أفضل من السرد من حيث زاده وقدرته على توصيف التاريخ والجغرافيا والثقافة وحمولتهم الفكرية والمعرفية تحت ظله المعرفي والعلمي والأدبي .

وتأتي ربما جائزة"ابن بطوطة"كخيار من جملة المساعي الجادة التي تسهر عليها عدة مؤسسات،إذ يقدّمها المركز العربي للأدب الجغرافي في"أبو ظبي"،حيث يمنح المركز الجائزة منذ عام 2003 م في عدة فروع منها"تحقيق الرحلة" و"الرحلة المعاصرة"...الخ.

وعلى سابق ما ذكر فلا ضير أن الرحلة في الأدب العربي خطاب ثقافي يزخر بمختلف المعارف ويعد"أكثر المدارس تثقيفا للإنسان"[23]ذو فوائد جليلة يكشف في جل رهاناته عن معالم الهوية و الذات العربية الإسلامية انكشافاً مركزياً من خلال صورتين بارزتين هما صورتا: الأنا والآخر،فهو وإن كان يحوي ضربا من المجازات والاستطرادات والعجيب والغريب إلا أنه يظل شديدة الصلة بالواقع ومتمسكا به إلى أبد حد ممكن،إذ يتيح الخطاب الرحلي إمكانية جس نبض مختلف تعالقات الذات مع مختلف الإيديولوجيات والبيئة كعالم وصفي يجسد مختلف الحساسيات الفكرية والثقافية...الخ،والتي يمكن رصد استجاباتها وتفكيك بنياتها واستراتيجياتها الثقافية.

فالوصف في الخطاب الرحلي يمثل فضاء تتواشج فيه أصوات متعددة تعكس بدورها خطابا متعدد الأوجه يساهم في بناء صورة الذات وصورة الآخر.

ويعتبر اليوم"أدب الرحلات-إلى جانب قيميته الترفيهية أو الأدبية أحيانا—مصدرا هاما للدراسات التاريخية المقارنة،وذلك خاصة بالنسبة للعصور الوسطى،كما أن علماء الأدب المقارن اعتبروه قسما من أقسام هذا الأدب في تصنيفه الحديث. "[24]

وضمن أبجديات المقاربة العلمية الهادفة لا يمكن إقصاء التصنيف الموضوعي للرحلات ضمن عملية الكشف والتقصي من حيث إن الرحلة تتقولب في عدة أطر منها الأدبية و الدينية أو الحضارية...الخ.وعليه فإن عملية قراءة الرحلة من منظور نقدي تستوجب تتابع فعاليات الوصف وكشف المطمور من الخصيصات النوعية،أكثر من إصداره للأحكام والتصنيفات .

تتقارب الدينامكية الفنية للنص الرحلي،وبخاصة النص الرحلي الحديث مع بوتقة السرد كالحكاية و الرواية...الخ نظرا للتشابه الكبير في بعض الخصائص الفنية تلك التي أسهم في تقاطعها المشترك العامل الزمني ...كأهم طرف في كينونتها،ولعل هذا الأمر كان في صالح أدب الرحلة،مما يتيح لنا الاستعانة بآليات تحليل خطاب الرواية والقصة في ظل نقص التنظير الرحلي،وذلك دون تجاوز التمايز القائم،فضلا عن ملاحظتنا بأن حظ الرحلة القديمة في الدراسات الأكاديمية والبحوث العلمية كان أكبر من حظ الرحلة الحديثة .و هو ما يكشف عن مسايرة الابتداع لحركية الإبداع،فلما خفت صوت الإبداع الرحلي خفت معه صوت النقد.

وتبرز تداعيات السرد الحر في الخطاب الرحلي بدرجة كبيرة،وذلك نظرا لانفتاح الخطاب الرحلي على أقطاب متعددة من الفنون القولية تلك التي تمنح الخطاب صيغة الآنية الحوارية التي ترتبط بتقنيات الفنون الشفوية بخاصة،وهي صيغة ذات صدى

تواصلي تتقولب بحضورها المتواتر بين ثنايا الخطاب الرحلي .فالخطاب الأدبي الرحلي يتجاوز السرد والحوار...،حيث يحقق الكثير من الظواهر الأدبية وفي نفس الوقت يحتكرها ويتمرد عليها كجنس وشكل أدبي يحمل نسقه المجهول،إذ يستنفذ كل ما أمكنه من الفنون القولية والمكتوبة...وغيرها في بوتقته الإبداعية والفنية والجمالية كما يستدعي سياقاته داخله،وكأنه بذلك يفرض تلقيه بمرجعيته الذاتية التي تتواشج فيها مستويات عديدة من الفهم والتي تتزوي تحت سطوره المثقلة بالدلالة والإيحاءات المتنوعة .

وهكذا فالخطاب الرحلي خطاب هوية يحمل العديد من المكونات الشخصية للرحالة،والتي تبرز بشكل أو آخر في ثنايا الرؤية الصادر عنها،وصدى تواصله الأسلوبي مع الآخر،كما يحمل السرد عدة عناصر وفنيات الحكايات الواردة فيها تلك التي تتناثر فيها مختلف الدلالات الفكرية والمعرفية والاجتماعية والثقافية والإثنوجرافية...الخ الأمر الذي يتيح للناقد عبر التحليل العلمي المتوسل بآليات النقد المرتكز على جهود المناهج النقدية الحداثية من استنطاق نص الرحلة،ليبوح بالكثير أدبيا وثقافيا واجتماعيا وفكريا...،فيكون الخطاب الرحلي هو المصدر والمرجع في نفس الوقت؛لأن الناقد لن يستغني عن فسيفساء النص الرحلي الفكرية والمعرفية والتاريخية والاجتماعية... في عملية التأويل والقراءة وربط العلاقات والتجارب والأفكار،وكأنه مرغم على تتبع همس مرجعية تفرض نفسها فرضا،وهذا يكمل عمل الجغرافي والإثنوجرافي وباحث علم الاجتماع...،فهؤلاء يلجون النص بآليات مستقاة من المناهج العلمية والمعرفية في دوائر تخصصاتهم،وهو نفس عمل الناقد الأدبي الذي يفعّل أدوات مناهجه المختلفة؛أملا في استكمال جهود هؤلاء من المعطيات اللغوية والأدبية في النص،ورغبة في أن يكون أدب الرحلة جزءا من المصادر الأدبية التي تكشف طبيعة الأسلوب في عصرها،وأنماط السرد فيه .[25]و التعرف على الذات والآخر،من جهة،وتحصين من جهة ثانية،فقيمة الاختلاف والمغايرة كأداة للحوار بين الشعوب والثقافات المتعددة بعيدا عن براثين القطبية الإبداعية والإيديولوجية.

فبعد هذه الرحلة التي قصدت بها تتبع أبرز هواجس الخطاب الرحلي بين الموقع والتوقع،والتي حقا كانت ممتعة،وطريفة بين ثنايا المشهد الوصفي التحليلي الذي مكننا من كشف بعض القضايا والإشكالات التي تعتري مدونة الأدب الرحلي،وبذلك استطعنا الخروج بجملة من النتائج،والتي يمكن أن أجملها في النقاط التالية :

أن أدب الرحلة شكل فني خاص له سيماته وأطره الفنية بالرغم من وجود تعالق بينه وبين كثير من الأشكال الأدبية وغير الأدبية،مما يحتم على الدارس عدم التعامل مع الرحلة باعتبارها تسجيلاً جغرافياً؛لأن ذلك يخرجها من دائرة الأدب،إذ إن التصنيف الموضوعي للرحلات من حيث إنها اتجاه ديني أو جغرافي أو حضاري،سيسهم لا محالة في تعزيز ثبات التموقع الخطابي للنص الرحلي،والذي يسهل بدوره عملية النقد وفق رؤى جمالية حديثة تستنطق المطمور في غياهب النص الرحلي من مختلف الزوايا،وذلك تبعا لرغبة كل ناقد في تحقيق نتائج تظهر القيمة الفكرية والفنية والجمالية لأدب الرحلات.

ومن جهة التوقع نجد أن المدونات الرحلية ثمار جهود عظيمة أفنت أعمارها وأبصارها في بناء الخطاب الرحلي،فهي تراث أصيل يستوجب نفض الغبار عن صفحاته بالقراءة والمساءلة،ومد جسور التواصل لكشف أسرارها ومكنوناته كمسعى جاد يعكس أفق الحضارة العربية والإسلامية على حد سواء.

الهوامش والمراجع

[1]- حسين محمد فهيم :أدب الرحلات،عالم المعرفة،سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، ع/138،1989م،ص:126

[2]- سامي الدهان :رسالة ابن فضلان،دار صادر،بيروت،ط3،1993 م،ص: 15 .

* رصد ابن فضلان الواقع بكل ما فيه من محاسن ومساوئ،وقد صدمه كثير من المشاهد،ويحكي ما يروي بصراحة وبأسلوب مشرق واضح لا مجال للخيال عنده،ولا يهتم بالقصص الخرافية والأساطير؛ لأن الواقع كان أغنى من الخيال. وابن فضلان رجل دين ورع شديد الإيمان بالله،عظيم التمسك بدينه وأخلاقه وتقواه فكان يستر وجهه حياءاً من كشف النساء لعوراتهن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر،يمنع ملك الصقالبة من تسمية نفسه بالملك،لأن الله هو الملك.

[3]- أحمد ابن فضلان: رسالة ابن فضلان،تح/تع:سامي الدهان،مطبوعات المجمع العلمي العربي،دمشق،1959م.ص:28.

* مخطوط الخزانة العامة بالرباط يحمل رقم: ق111. وتوجد نسخة منه بخزانة الإسكوريال تحت رقم:1666.

[4] : ينظر: مصطفى عبد الله الغاشي:صورة الشرق من خلال "المعرج المرقية في الرحلة المشرقية"الرافعي التطواني (1096هـ/1684م)،مجلة الدارة ،ع /1، 1420 هـ،ص:195.

[5]- حليفي،شعيب.الرحلة في الأدب العربي،التجنس،آليات الكتابة،خطاب المتخيل،كتابات نقدية،121،الهيئة العامة لقصور الثقافة،2002م،ص:81.

[6]-كامل المهندس /وهبة،مجدي:معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،مكتبة لبنان،لبنان،بيروت،ط2،1974م،ص:17.

[7]-بطرس،إنجيل:الرحلات في الأدب الإنجليزي،مجلة الهلال، ع/ 7،1975م،ص:52.

[8]- الحاتمي،محمد: الرحلات المغربية السوسية : بين المعرفي والأدبي،تقديم: الدكتور عباس الجراري،منشورات فريق البحث في التراث السوسي -كلية الآداب والعلوم الإنسانية - اكادير ،دط،دت،ص: 63.

[9]- عبد الرحيم مؤدن:رحلة أدبية أم أدبية الرحلة؟ مقال منشور على: http://www.aljabriabed.net

[10]-بطرس البستاني،دائرة المعارف،مج8 ،مطبعة المعارف،د ط،بيروت،1884م،ص:564 .

[11]-صلاح الدين علي الشامي،الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية،منشأة . المعارف،د ط،الإسكندرية،1999م،ص:11 .

[12]- من مقدمة: محمد العبدري البلنسي،الرحلة المغربية،تح:أحمد بن جدو،مطبعة البعث،نشر كلية الآداب الجزائرية،قسنطينة،1.

[13]- عبد النبي ذاكر: المحتمل في الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا الشمالية والاتحاد السوفياتي،دكتوراه الدولة تمت مناقشتها بكلية الآداب بأكادير (1998م)،إشراف:سعيد علوش،ص:507.

[14]-كامل المهندس /وهبة،مجدي:معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،مكتبة لبنان،لبنان،بيروت،ط2،1974م،ص: 183.

[15]-كامل المهندس /وهبة،مجدي:معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،ص: 176.

[16]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات،ترجمة عبد الكبير الشرقاوي،دار طوبقال،1993م،ص:127.

[17]- للمزيد ينظر: فؤاد قنديل:"أدب الرحلة في التراث العربي"،مكتبة الدار العربية للكتاب،القاهرة،ط1،2002م.

[18]- فؤاد قنديل:"أدب الرحلة في التراث العربي"،مكتبة الدار العربية للكتاب،القاهرة،ط1،2002 م،ص:6.

[19]- ناصر عبد الرزاق الموافي،:الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري،دار النشر للجامعات المصرية،مكتبة الوفاء،ط1،1995م،ص:41.

[20]- ناصر عبد الرزاق الموافي،الرحلة العربية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع،ص:37 .

[21]- جبور عبد النور :المعجم الأدبي،دار العلم للملايين،بيروت،ط2،1984م،ص:316.

[22]- محمود قمبر:الرحلة العلمية وقيمتها التربوية،دراسة أكاديمية،جامعة قطر،قسم أصول التربية،دت،ص:187.

[23]- سيد أحمد النساج: مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا،مكتبة غريب للطباعة،دط،القاهرة،د ت،ص:8.

[24]-كامل المهندس /وهبة،مجدي:معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،ص:17.

[25]-ينظر: قضايا الخطاب في أدب الرحلات على موقع شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات http://diae.net/17595.